

تفسير ابن كثير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ^ط إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

قال سفيان الثوري ، عن منصور ، عن رجل ، عن علي رضي الله عنه ، في قوله تعالى : (

قوا أنفسكم وأهليكم نارا) يقول : أدبهم ، علموهم . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن

عباس : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ،

ومروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار . وقال مجاهد : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا)

قال : اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله . وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم

عن معصية الله ، وأن يقوم عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت الله

معصية ، قدعتهم عنها ، وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ، ومقاتل : حق على المسلم

أن يعلم أهله من قرابته ، وإمائه ، وعبيده ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه . وفي

معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث

عبد الملك بن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - : " مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها

" هذا لفظ أبي داود ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .وروى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل ذلك .قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ؛ ليكون ذلك تمرينا له على العبادة ، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة ، والطاعة ، ومجانبة المعصية ، وترك المنكر ، والله الموفق .وقوله : (وقودها الناس والحجارة) (وقودها) أي : حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم . (والحجارة) قيل : المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) [الأنبياء : 98] .وقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وأبو جعفر الباقر ، والسدي : هي حجارة من كبريت - زاد مجاهد : أتنن من الجيفة .وروى ذلك ابن أبي حاتم رحمه الله ، ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقري ، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن أبي راود - قال : بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلا هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) وعنده بعض أصحابه ، وفيهم شيخ ، فقال الشيخ : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " والذي نفسي بيده ، لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال

الدنيا كلها " . قال : فوق الشيخ مغشيا عليه ، فوضع النبي - صلى الله عليه وسلم - يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال : " يا شيخ " ، قل : " لا إله إلا الله " . فقالها ، فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يا رسول الله ، أمن بيننا ؟ قال : " نعم ، يقول الله تعالى : (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) [إبراهيم : 14] هذا حديث مرسل غريب . وقوله : (عليها ملائكة غلاظ شداد) أي : طباعهم غليظة ، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، (شداد) أي : تركيبيهم في غاية الشدة ، والكثافة ، والمنظر المزعج . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، حدثنا أبي ، عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول أهل النار إلى النار ، وجدوا على الباب أربعمئة ألف من خزنة جهنم ، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفا ، ثم يهونون من باب إلى باب خمسمئة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول ، حتى ينتهوا إلى آخرها . وقوله : (لا

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أي : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه . وهؤلاء هم الزبانية عياذا بالله منهم . وقوله : (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون) أي : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .